الأمين الخمليشي

الفيل

قال الاب :

ـ هل تحبون ان تروها ؟

ثم قام ، فتبعه الاخ الاكبر ، ثم خيرون (*) ، وكان لا يزال يفكر في خديجة ، وفي القبلة العنيفة التي طبع على فمها عنوة ،هناك، في عتمة درج العمارة التي تقطن فيها . دفع الاب الباب ، فبدا السرير في وسط الغرفة ، الى يمينه النافذة الخضراء التي تطل على الباتيو، مغلقة ،والى يساره الصندوق الخشبي المزوق ، تعتليه حقيبتان ، وملابس لاخوته براقة الالوان ، وبقايا ادوية . توقف الاب عند رأس السرير ، وبيد بيضاء ، ازاح الغطاء من على وجهها . لم يعد خيرون يفكر في خديجة ، اختفى وجهها ، وبقي وجه امه، وحده ، امامه. اخذ خيرون ينظر الى وجه امه ، فلم ير في وجهها ما يدل على انها قد ماتت فعلا.فقط هو الان اكثر هدوءا واكثر بياضا ، كانها اغتسلت بماء سحري ازال عن وجهها كل غبار الهم والسنين الوعرة ، فهي تبدو كطفولة نائمة ، حالمة ، وهي تبتسم ، والوشم الذي على ذقنها عادت اليه خضرته الاولى ، فهي تبدو اجمل من جميع نساء الارض ،بفضل هذا الماء الذي به ، اجمل من جميع نساء الارض ، تبدو . اخذ خيرون ينظر الى وجه امه بامعان ، ان روحها الان في البرزخ، وغدا ستغادره الى الجنة ، ستجتاز القبر بنجاح ، وستتحول روحها الى طائر اخضر، وستظل تنتقل من زهرة الى زهرة ، حتى تقوم القيامة. ورأى نفسه ،غدا ، واقفا عند قبرها ، بين ابيه واعمامه والفقهاء ، رائحة الكافور والثوب الجديد والتراب المحفور تدخل عبر مناخرهم المشعرة لكنهم لا يشمون ، وهم يرفعونها ليحطوها في الحفرة الضيقة ، وهم يهيلون عليها التراب ، هم يقرأون عليها يس وطه ، وهم يلقنونها الاجابة بصوت عال ، عال .. كتلميذ .. لكنها لن تكون في حاجة الى ذلك. ورأى نفسه غدا يطوف تائها في ارجاء دارهم القديمة تترصده عيون النساء وبنات امزدوي واعمامه واولادهم والفقهاء . الفقهاء بوجوههم المغبرة وعيونهم المتفرسة ولحاهم القصيرة وجلابيبهم الصوفية واظافرهم القذرة وضجيج اصواتهم وحركات رؤوسهم وهم يقرأون القرآن وهم ياكلون اللحم ويشربون الشاي ويتقاسمون النقود ويتبادلون الاخبار ويحزقون ويفسون ولا يبالون ، هل ياكل معهم ؟هل يشرب ؟ هل يقرأ ؟ وهم ينصرفون واحدا فواحدا ، وها هم يعودون، هو وابوه واخوه ، الى دارهم هذه ، والشمس على وشك ان تغرب، فلا يجدون في استقبالهم غير ضوء الكهرباء ، وعيون الاخوة ،والفراغ. عيون الاخوة وضوء الكهرباء والفراغ . العيون والضوء والفراغ . وصوت الراديو . وهذه الابتسامة التي على شفتيها . وهذا البياض. وابوه ماذا يقول ؟ واخوه الن يسكت ؟ لم يكن خيرون ليسمع او ليهتم باي شيء من ذلك ، كان فقط ينظر الى هذه الابتسامة ، وهذا البياض ، يفكر في الغد، وفي المرات القادمة التي سيعود فيها ولن تكون هي التي تفتح له الباب ، وفي القبلة التي طبع على فمها الدموي عنوة وفي نهديها الفائرين وفخذيها الفاجرتين وفمها الاسود.

كان خيرون يحب خديجة ،وكان يكتب اليها رسائل لا يستطيع المنفلوطي نفسه ان يكتب مثلها ، رغم اعجاب خيرون بالمنفلوطي وجبران واعتبارهما من احسن الكتاب ، لكن خيرون وقد قرأ الف ليلة وليلة كاملة واكثر من مرة واهتمامه السابق بمغامرات القبطان تروينو وخابطو والفهد الاسود ورفاقهم وحبه لخديجة والاغاني الهندية لم يعد يشك في ان رسائله اليها رغم ما يمكن ان يكون بها من اغلاط ، رسائل لا يمكن لاحد ان يكتب مثلها وهي التي ستجعلها تفسخ سروالها في النهاية مهما مانعت الان . كان خيرون يحب خديجة وكانت خديجة تحب ايليا ابوماضي وكان خيرون قد صمم على ان يكون شاعرا افضل من ايليا ابوماضي .

في الباتيو ، اخذت دجاجة ما تنيق ، التفت خيرون ، كما كان يلتفت وهو في السيارة ، فراى وجهه في المرآة المائلة ، وكذلك وجه امه ، وجانبا من جسم اخيه وابيه ،وراى ، واقفة بالباب ،الاخت الكبرى ، وعلى ظهرها الرضيعة ، مشدودة بفوطة صفراء ، نائمة ، وزليخة والاخ الاخر ، موسى ، بالقرب منها ، وخلفهم قليلا ، بدت اخت الام ، بوجهها الاحمر ، وجسمها الممتلىء ، هي ايضا واقفة تنظر ، من هناك ، دامعة العينين . وعبدالحق ، أين هو ؟ في الباتيو ، بالقرب من ساق الدالية ، يمنع الدجاج من النوم .

عاد خيرون ينظر الى وجه امه ، لكن الاب ، وقد اناره انسحاب الابن الاكبر وعيون الواقفين بالباب والكوميدور ، اعاد الغطاء على وجهها . وقال يكفي ، فخرجوا عائدين الى الغرفة الاولى . عادوا الى الغرفة الاولى ، وجلس كل واحد منهم في مكانه السابق ،وعاد الاب يحكي ، والاخ يبكي . كان الاب يحكي لهم عنها ، وكان الضوء معتدلا في الغرفة ، وكان خيرون ينظر الى ابيه وهو يتكلم ، فيشعر بشفقة حقيقية نحوه . كان وجهه شاحبا جدا ، ومن حين لاخر كانت تصيب اصابعه الطويلة ارتعاشة مفاجئة ، واحيانا كانت تزيغ نظراته ، فلا تستطيع ان تعرف الى اي جهة ينظر بالضبط ،وهو نفسه لم يكن بامكانه ان يعرف الى اين هو ينظر ، الى اي جهة بالضبط ؟ كان واضحا ان الله اكبر من آلامهم جميعا ، رغم كل محاولاته لاخفاء ذلك . قبل ثلاثة ايام فقط ، عدت من المدرسة فوجدتها واقفة في الكوزينا ، ولم تكن قد قامت من الفراش ، منذ مدة ، فاستبشرت خيرا وسألتها عن حالها ، فقالت وهي تضحك : بخير ، وعندما عدت مساء ، اخبرتني بانها اغتسلت ، وتفقدت الدار، ونبهت اختها (هل يمكن ان تصبح زوجته ؟ الا يفكران في ذلك ؟) الى اهمال لاحظته في الدار ، ثم نعشت كما لم ارها تفعل منذ مدة ، ورفضت ان تتناول دواءها ، وقلنا جميعا انها في طريق الشفاء . لكني كنت اعرف انها ستموت . كنت اعرف ذلك ليس فقط مما قاله لي الطبيب ولا من طول مدة مرضها ولا من كثرة الادوية التي دخلت الى جسمها (والله شاهد على انني لم ابخل وما كنت لابخل عليها باي دواء مهما كان ثمنه) ، كنت اعرف ذلك من ذلك ومن

(*) خيرون ، شخصية يتتبع المؤلف تطور حياتها وحياة البيئة التي تعيش فيها في اقاصيص مختلفة .

اشياء اخرى . كنت في المدرسة ، وكنت افكر فيها ، وفي مصير هؤلاء الاولاد اذا ماتت ، واقتربت من النافذة وانا اقرأ في سري آية، وقلت : ساطل ، وما ساراه سيكون فالا عليها . فماذا رأيت ؟حمالا يدفع امامه برويطا في داخلها شكارة بيضاء . وتلك الطائرة السوداء ؟ لم ينفعني معها قرآن ولا برهان . حاولت ان اتهرب منها دون جدوى . لم تتوقف حتى لطمتني على وجهي . وافقت وانا اشعر بوجهي يحترق . وقمت وكنت نائما هنا ودخلت عليها . كانوا كلهم نائمين . واشعلت الضوء فبدا لي وجهها هادئا وعيناها مغمضتين وظننتها نائمة ، غير اني سمعتها تقول دون ان تفتح عينيها : أهو انت ؟ فاجبتها بنعم وسالتها عما اذ اكانت تريد حاجة ، فقالت: نعم ، منذ مدة وانا انادي دون ان يسمعني احد ، اريد كأس ماء ، فاحضرت لها كأس الماء ففتحت عينيها وتناولت الكأس من يدي وشربتها كاملة . ثم قالت : اجلس ، فجلست . وقالت هل انت خائف ؟ فاجبتها بلا . فقالت له اريد ان تخاف ، اسمع ، اذا مت يجب ان تتزوج ، فاردت ان اقاطعها لكنها قاطعتني وقالت : اسمع اقول لك اذا مت يجب ان تتزوج ،أنت موظف ولك اولاد ولا يمكنك ان تبقى أعزب ، لكن اياك ان تفرط في اولادي ، فقلت اوليسوا اولادي أنا ايضا ؟ فقالت وهي تبتسم : اعرف ذلك لكن من يدري كيف ستعاملهم المراة التي ستاخذها ؟ فقلت المراة التي يمكنها ان تصرخ في وجه اولادي لم تخلق بعد . وبقينا نتكلم هكذا حتى الصبح ، حتى طلع النهار وذهبت الى المدرسة ، ولم اشأ ان اخبرها بالحلم الذي رأيته في منامي . وما زال منظر الطائرة امامي ، كانني قد رأيته منذ لحظة فقط .

كان الاب يتكلم بصوت يحاول ان يجعله هادئا قدر الامكان ، ومن حين لاخر يرفع يده الى عينيه ربما ليمسح بها دمعة قبل ان تطل في العين . كانت عيناه حمراوين . وكان الاخ ينصت رغم بكائه باهتمام. ينصت ليعرف كيف يقيس فيما بعد . واخذ الاب يحكي عن احلام اخرى . عن امه واخته ومجموعة اخرى من الموتى وزغردتهن هنا. وكان خيرون يرى كل ذلك بوضوح . ودخلت اخت الام بصينية الشاي ، وضعتها على الطاولة المستطيلة وخرجت ، محتقنة الوجه . لا تشبه امي في شيء . طالب الاخ برفع الصينية . لم تكن لديه رغبة في شرب شيء. قال . وكان الدمع يجري من عينيه بسهولة استغرب لها محمد خيرون . كامرأة ، مد الاب يده الشاحبة الى البراد واخذ يكب ، مع ذلك . هو يعرف ، السفر متعب ، والشاي منعش . وخيرون لا يحب الشاي كثيرا ، ومع ذلك فهو سيشرب هذه الكأس . بخار متصاعد، وخرخرة لا تشبه خرخرة السيارة ، لكنها تذكره بها . لكنه ليس في حاجة اليها ليتذكرها . ان الذكريات مثل العلك . وهي ضد النظام ايضا . وها هوذا في السيارة من جديد . جالسا جنب اخيه ، ملاصقا للنافذة ، والكل صامت ، ما عدا السيارة ، ورائحتها لا تزال عالقة بحلقه ، وهو يتابع بنظره حركات رأس رجل نائم ، تتارجح يمينا وشمالا ، تصطدم بالحديدة التي في ظهر المقعد الامامي احيانا ، فينتبه لحظة وسرعان ما يعود الى نومه ، وهو يفكر في خديجة وامه ، تختلط الصور احيانا ، تختفي وتعود ، تتكرر ، تحزن مثل هذه المناظر التي تبدو من النافذة ، وثمة رغبة في القيء وراء ذلك كله .متى ماتت بالضبط ؟ حوالي الحادية عشرة . كنت في المدرسة ،حين انفتح باب القسم فجاة وظهرت اختك . بمجرد ان رأيتها عرفت ، شعرت بغمامة على عيني ولا أعرف ماذا قلت للمدير بالضبط ، وخرجت وانا لا اكاد أبصر الطريق ، ووجدتها تتنفس بصعوبة ، والعرق يغطي وجهها ،وتلك علامة المؤمن ، وعندما انتبهت لوجودي قالت لي بانها تموت ، وطلبت مني ان اسمح لها وان اهتم بكم ، واخذت ابكي ، ولم اكن في حاجة لان اذكرها بالشهادة ، فقد اخذت تستشهد من تلقاء نفسها ،وكان العرق يتصبب منها كما لو انك افرغت عليها بئرا من الماء وشيئا فشيئا ، اخذت حركاتها تقل ، والعرق يجف ، حتى جف تماما،وهدات تماما ، وهكذا ماتت والابتسامة على وجهها كما رأيتم ،والشهادة على فمها ، فرحمة الله عليك يا رحمة وانا لله وانا اليه .

حوالي الحادية عشرة اذن ، وحوالي الثالثة وصلنا التلفون ، دخل دون ليون ، وقبل ان يدخل دون ليون ، كنت اجلس وراءها وكنت انظر الى شعرها الاسود واشعر برغبة لا تقاوم في ان اجدها منه ، ومن حين لاخر انخسها باصبع في ظهرها فلا تقدر ان تلتفت وتنتظر الاستراحة لتوبخني ، لكني كنت اعرف ان ذلك يعجبها وانها تمثل فقط ، ولم اكن انتبه الى حرف مما ينشده مدرس التاريخ ، ثم دخل دون ليون ، فوقفنا جميعا ، فقال لنا بالعربية ، وكان يهوديا يعرف العربية والاسبانية والفرنسية ، اجلسوا ، فجلسنا، وعندئذ رأيته ينظر في اتجاهي ، ثم طلب مني ان اجمع دفاتري وارافقه ، ففعلت ، وانا لا اعرف لماذا ، واثناء ذلك قال لمدرس التاريخ شيئا، ولم يكن بامكاني ان اساله لماذا ، وشعرت بوجهي يحمر وانا اغادر القسم ، دون ان اعرف لماذا ، وقبل ان اصل الى الباب ، التفت نحوها ، فرأيتها تنظر الي بوجه جاد ، محمر ، وعندما اصبحنا خارج القسم ، وضع دون ليون يده على كتفي ، ورأيت اخي هذا من بعيد واقفا امام مكتبه وبصوت رقيق جدا قال او عاد يقول ان اباكم تلفن لكم وهو يطلب منكم ان تحضروا حوله لان امكم مريضة جدا .

وفي الرابعة كنا في بلنسيانا .

لكن كيف كان بامكانه ان يعرف انه يراها لاخر مرة ؟

(ولو عرفت ، ماذا كنت تفعل ؟)

كان يوم جمعة ، وكان ابوه قد اخبرهما في رسالة سابقة، بانه سيأتي يوم الجمعة ، هو وامهما ، ليراها الطبيب ، هناك، وخيرون ما يزال يتذكر الفرح الذي بدا على وجهها ، وهي تدور بعينيها في ارجاء الغرفة الارضية الرطبة المظلمة التي كان يسكن فيها واخاه ، وهي تفتح الصاك وتخرج منه الدجاجة المقلية والبيض المسلوق وخبزة القمح المدورة الفليظة ، وهي تضع كل ذلك على الطيفور الدائري الاعرج ، وهي تدس في يده ورقة الرسالات العشرة خلسة عن عين اخيه . وقالت له مازحة : لقد كبرت ، ويجب أن تتزوج ، قال خيرون : لا ، انا لن اتزوج ، سألت : لماذا ؟ قال : لن اتزوج حتى اكبر واصبح غنيا ومشهورا . قالت : وماذا تريد ان تكون ؟ قال : وزيرا او سفيرا ، ولم يشا ان يضيف شاعرا ، قالت : وعندئذ ستتزوج ؟ قال : نعم ، قالت : وعندئذ ستنساني ، ستقول لك زوجتك : اما انا واما هي ، وستفضلها علي ، قال خيرون : لم تخلق بعد المراة التي يمكنها ان تقول لي ذلك . العالم عامر بالنساء. قال الاب مازحا : ابحث لنا عن واحدة اخرى فقط . قالت : وعندئذ ستشتري لي اسنانا جديدة ؟ قال خيرون : ساشتري لك اسنانا ذهبية وخواتم ودمالج وساعة وكل ما تريدين واذهب معك الى الحج كل سنة في الطائرة واتجول بك عبر جميع المدن وفي سياراتي الخاصة . قال الاب : هكذا ، واذن انا هنا غير زائد . قال خيرون: وساشتري دارا ... قال الاب : قل سابني ولا تقل ساشتري ، ... دارا فخمة مليئة بالبيوت فيها السفلي والفوقي وحديقة فيها كل انواع الطيور والزهور وستأتون لتسكنوا معي فيها ، ومن يمرض آتي له باحسن الاطباء . قالت وهي تضحك : قل ان شاء الله . كانت تبدو مرحة طيلة النهار ، لكن حين اقتربت الرابعة ، ووضع ابوه رزمة الادوية في الصاك ، وطلب منها ان تلبس حوائجها ، تبدل شيء ما فيها . ففعندما لبست جلابتها ، ووضعت اللثام على وجهها ، ولم يبق لها الا ان تضع النظارة السوداء على عينيها ، والصباط في رجلها ، واقترب منها ليطبع على يدها تلك القبلة التي تعود ان يودعها او يستقبلها بها منذ ان جاء للدراسة هنا ، طوقته فجاة بذراعيها ، طوقته بقوة واخذت تقبله بقوة وغزارة وحرارة ما سبق له قطا ان عهد مثل ذلك منها . وكذلك مع اخيه . وشعر بالخجل

والحرج وهو يتخلص من ذراعيها . ولم يستطع ان ينظر الى عينيها . وانذاك لم يعرف لماذا ، لكنه الان يعرف . الان يعرف ، الان يعرف لماذا اغتسلت قبل ثلاثة ايام فقط ولماذا تفقدت الدار كاملة ولماذا اوصت اباه بهم ولماذا قبلته هكذا . لكن كيف كان بامكانه ان يعرف انه يراها لاخر مرة ؟ . تذكرها وهي جالسة في السيارة الحمراء ، بلنسيانا ، بجوار ابيه ، لا يظهر من وجهها شيء ، مغطى باللثام الاسود والنظارة السوداء وقب الجلابة الاسود ، وهو واخوه واقفان على الطوار ، ينتظران اقلاع السيارة ، وابوه ، بطربوشه الاحمر ، عوض الرزة ، ينظر اليهما عبر الزجاج باسما . فيم كانت تفكر وهي تنظر اليهما عبر زجاج نظارتها الغليظ ؟ وفي الجهة الاخرى من الساحة ، كانت تقوم العمارة التي تسكن فيها خديجة . هناك ، في ذلك الطابق ، تلك النافذة نصف المفتوحة هي نافذة غرفتها . لم يكن بامكاني ان امنع نفسي من التطلع الى النافذة ، فهل كانت تعرف ؟. وكيف كان بامكاني ان اعرف ؟. كان عليك ان تعرف . ثقتك بالطبيب كانت اكبر مما ينبغي . والان ها انت تعرف . فحاول الا تنسى . وتذكرها قبل ذلك ، قبل ان يصبح ابوه «وطفا وقبل ان ينتقلوا الى هنا ، تذكرها ايام الجوع . تلك الليلة ، كان القمر يلمع مثل خبزة قمح جهة المشرق ، وكانت هي تجلس امام الكانون تقلي سمكا اتى به ابوه من السوق . زردة . كانت تقلي السمك في صمت ، وكان خيرون يجلس غير بعيد منها يقرأ في لوح ، وعاد ابوه من الجامع ودخل الغرفة دون ان يكلمها . وكان خيرون يشعر بالجوع ويود ان يطلب منها سمكة . وفجأة ، رآها ترفع المقلاة من فوق النار وتلقي بها نحو الحائط ، ثم رآها تنقض على بقية الاسماك مثل قطة مسعورة وتطوح بها في جميع الاتجاهات في الفناء وخارج السور ونحو القمر وداخل الغرفة ، وهي تعوي ، وعندئذ رأى ابوه يخرج من الغرفة بشاميره الابيض وراسه العاري وينقض عليها ، حاولت مقاومته ولكنه بعد ان جرها الى الداخل من شعرها جثم على صدرها بركبتيه العاريتين وكم فمها بيد وباليد الاخرى اخذ يضغط على عنقها وهو يصرخ وعيناه جاحظتان اذا كنت مسكونة بالجن الاسود فانا مسكون بالجن الاحمر وجاء الاخ الاكبر يحاول مساعدتها فدفعه الاب دفعة جعلته يترنح بالقرب من الرحى ، وظل يضغط حتى توقف صراخها ، وحتى بعد ان اغمي عليها ظل يضرب فيها . ظل يضربها في بطنها وصدرها بكلتا رجليه حتى بعد ان اغمي عليها ، وعندما ادرك لا جدوى ذلك ، التفت باحثا عن اخيه ، لكن هذا كان اخف من قط ، وخرج هاربا من الدار الى الليل تاركا الباب الخارجي مفتوحا ، وعاد الاب بعد ان اغلق الباب واخذ يجمع من فناء الدار السمك المشتت وهو يقول : تعالوا لتتعشوا يا اولاد الحرام ، جعل الله عشاءكم سما ، تريدون قتلي ، ولكني ساقتلكم قبل ذلك . تلك الليلة ، لم يكن بامكان خيرون ان ينساها . وفيما بعد ، عرف ان امه كانت حامل في تلك الليلة . وكذلك لم يكن بامكانه ان ينسى ذراعيها وهما تطوقانه لاخر «رة ، وشفتيها ، وهما تطوفان بوجهه ، وهما هناك ، فوق وجهه ، وكانهما لن ترتفعا ابدا من فوق وجهه . والان ما جدوى ان تصبح سفيرا او شاعرا ؟ ما جدوى ان تحبك خديجة او لا تحبك ؟ ما جدوى كل ذلك ؟ وتذكرها يوم دخل الجنود الخمسة ، هنا ، الى هذه الدار ، بثيابهم العسكرية الجديدة ورشاشاتهم اللامعة ، هذا قريب ، كانت تغطي وجهها بيديها ، وهي ملتفتة نحو الحائط ، وكان الجنود يفتشون في انحاء الدار عن الاسلحة ، ولم تكن هناك اسلحة ، وعندما تاكدوا من ذلك ، اقترب مني احدهم وسالني وهو يضع يده على راسي : انت خائف ؟ فقلت : جائع ، فابتسم والتفت نحوها قائلا : ابنك جائع ، اعطيه الخبز، فلم تلتفت نحوه ولم ترد ، فقال لاصحابه هيا ، وخرجوا وهم يبتسمون، وتطلعت الى وجهها بعد خروجهم فلم اكد اعرفها . كان وجهها اكثر بياضا مما هو عليه الان . والان ، هي هناك ، ترقد باسمة ، حالمة، تنتظر يوم القيامة ، لنلتقي جميعا «رة اخرى ، في الجنة الخالدة ، بعيدا عن كل هذا الغبار ، هذا الغبار الذي يمكن ان نتذكره من حين لاخر ، حتى ونحن في الجنة ، ويمكن لاي واحد منا ان يحكي ما يتذكر منه ، حتى ونحن في الجنة . تذكر خيرون امه وهي تدور في فناء دارهم الاولي ، حافية القدمين ، تذكرها وهي تقتسم «ع ابيه لباس السروال الوحيد ، هي في الداخل وهو في الخارج ، تذكرها وهي تشعل النار في التنور ، وهي تحلب البقرة في المستحم المظلم ، وهي تطحن في قلب الليل ، وهي تذر الشعير للدجاج ، وهي تغمس السمك في الطحين ، وهي تحرك العدس ، وهي تحاول منع ابيه من ضربه واخوانه ، وهي واقفة بالقرب من المطمورة تنظر الى رؤوس اشجار الليل ، اللوز ، وهي تطلب منه ان يكتب لها حجابا كي يحبها ابوه ، وهي تحت ابيه ، وهي تصرخ من الام الوضع ، وهو يدخل عليها في تلك الظهيرة فيجدها مستلقية على بطنها عارية الساقين فيظنها نائمة فينحني على ساقيها ويأخذ في تقبيلها بقعة فبقعة دون ان يعرف لماذا ، وهي تصلي ، وهي تتوسل الى ابيه ان يذهب به الى الطبيب ، او يكتب له حجابا ، وهي ترش الهندية بالماء ، وهي تمسك بالكلاب وتقلع لنفسها بنفسها الضرسة المريضة ، وهي تنتقل «ن هذا الكوميدور لهذا الكوميدور، وهي تتشاجر مع اخته ، وهي تفتح له الباب وتساله اين تاخر ، وهي تسعل ، وهي تبصق الدم ، وهي تطلب منه ان يتزوج ، وهي في السيارة ، وهي تبصق الدم ، وهي هناك مرة اخرى . تذكر خيرون كل ذلك ، تذكره في السيارة ويتذكره الان وسيتذكره حتى وهو في الجنة . هناك ، كان بامكانها ان ترى الشمس طيلة النهار، الشمس والسماء والنجوم والجوع والجبال والاشجار ومداشر بعيدة والابقار والماعز والحمير والافاعي والغربان واللقالق وطيور البنى والدود وكل شيء . هنا ، الكوميدور في الكوميدر ، والبيت في البيت والعتمة في وسط النهار والسقف هو السماء ، والدالية هي الغابة . لكن هنا الزليج والضوء كهربائي والماء في البزبوز . نعم . نعم ونعمة . وتذكرها وهي تلمس زر الكهرباء لاول «رة في حياتها ، مترددة وشبه خائفة ، وكانها تلمس الزر الذي سيفجر هذا العالم في لحظة . وتخيلها وهي لا تزال طفلة ، عذراء ، لا تعرف غير الشلحة ، لم تعرف اباه بعد ، رآها وهي في الطريق الى البئر ، وهي تفتح الباب لابيها العائد من البحر ، وهي تساعد امها على نفض الحصير بالهراوة ، وهي تلعب ، وهي في الحقل تقلع الزرع ، وهي تغني ، وهي تحلم بمن سيكون زوجها ، وهي تفكر في الحياة التي تنتظرها، وهي تضحك مثل عجلة والموت ما هو غير موجود لن اموت ابدا ، وهي تقترب من تلك الشجرة ، وسط «جموعة من البنات ، وانا فوق ، مختبىء بين اغصان الشجرة الكثيفة والاوراق ، وعندما تصبح تحتي مباشرة ، اقلع تينة بيضاء ، واضربها بها ، فترفع رأسها نحو الشجرة وتراني ، فتنفجر ضاحكة وتضحك معها بقية البنات غير اني لا اضحك . ورآها وهي مستيقظة في وسط الليل ، عطشانة ، والضوء مطفأ ، وابوه يحلم بالمدرسة والطائرات السود والموتى العائدين ، وهو راقد بجوار اخيه ، يفكر في خديجة ، وخديجة تفكر في الزواج «ن كولونيل ، وهي تضع يدا على نهد ، وباليد الاخرى تداعب الشعر الدائر بالجرح الذي بين فخذيها ، وهي عطشانة ، تفكر في حياتها الماضية ، جوفها يحترق ، تريد ان تتقيأ ولا تقدر ، تفكر في اولادها ، وفي المرأة التي ستحل مكانها ، تفكر ، تفكر ، تفكر ، تفكر ، وهي تعرف بانها ستموت ، وهي لا تريد ان يجدها من سيغسلها قذرة ، لذلك فهي تغتسل قبل ذلك ، وهي تريد ان ترى خيرون واخوه قبل ان تموت ، لكنها لا تستطيع ان تعلن ذلك ، هي تريد ان تراهما قبل ان تموت ، لكنها تعرف بان ذلك غير ممكن ، غير ممكن ، غير ممكن ، هي تريد ان تقول له شيئا ، قبل ان تموت ، لكن ذلك غير ممكن ، ورائكما وانتما تدخلان علي يتقدمكما الاب دامع

العينين وها هوذا يزيح الغطاء من على وجهي ورايتكما تنظران الى وجهي وانتما تبكيان فحاولت ان ابتسم قبل ان اموت . فيا خيرون، لا تنس ان تقرأ علي سورة ، من وقت لاخر . لا تنس ، يا خيرون ، وتذكر كل ما فعلته معك ، تذكر يا خيرون ، تذكر ، تذكر ، تذكر ، ولا تنسى ان تقرأ علي من وقت لاخر ، سورة . فمن قتلك ؟ قال الاب :

ـ مالك تنظر الي هكذا ؟ .

شعر خيرون برغبة في ان يضحك . رآه جاثما على صدرها في شاميره الابيض ورأسه العاري فشعر برغبة في ان يضحك . واخذ الاخ يحكي عن اصوات واحلام قال انه من خلالها عرف بان امه ستموت ، وفكر خيرون بانه يكذب ، وانه في الحقيقة لم ير ولم يسمع اي شيء من ذلك ، انما هو فقط يريد ان يقلد اباه ، وطلب منه الاب ان يقلل من صراخه ، فهذا ما اراده الله ، وقال نعم ، عندها قلنا ذهب زمن الهم ، وفتح الله علينا بباب رزقه ، ها هي ذي تذهب ، لكن ما دمت لكم حيا فانا هو ابوكم وامكم ولن تخصكم ابدا حاجة . وقال انما المنكوب الحقيقي هو انا . وسادفنها بجوار ولديها وابي . وساظل اقرأ عليها حتى الحق بها ، وطلب منهم ان يدفن بجوارها ، وقال هذا ما اراده الله .

ظهر عبد الحق وسط الكوميدور ، حافي القدمين ، يتقدمه القط . اخذ ينظر الى خيرون بعينين واسعتين . قال له خيرون ، ادخل . سأل الاب : من ؟ . رد خيرون بانه عبد الحق . نادى الاب على هذا فدخل وجلس بجوار ابيه . ناوله الاب كاس شاي، وطوقه بذراعه وهو يقول : ما يفتت قلبي اكثر من اي شيء هو البنات ، عندما افكر فيهن اشعر كان سكينا تشق قلبي ، انتم ، رغم كل شيء رجال ، وستكبرون وتنسون ، انا نفسي عندما ماتت امي بكيت حتى مرضت عيناي وكنت علي وشك ان احمق ، لكني نسيتها بعد ذلك ولو اني لم انس القراءة عليها قط ... لكن هؤلاء البنات ...

في الخارج ، الظلمة ، غير ان الاطفال ما زالوا يلعبون في الزقاق وها هي ذي اصوات صراخهم تدخل عبر شقوق خشب الناقدة الخضراء وتصل الى اذن خيرون بوضوح ، حتى انه لقادر على ان يتعرف على مجموعة كبيرة منهم ذكورا واناثا فقط من خلال اصواتهم. وشعر برغبة حارة في ان يلحق بهم . وفجاة قام . فرفع الاب نحوه عينين متسائلتين وقال : الى اين ؟. رد خيرون : لا شيء ، فقط اريد ان اراها مرة اخرى . قال الاب : اجلس ، او انتظر حتى اذهب معك . قال خيرون : لا . اريد ان اراها وحدي ، اريد ان اقرأ عليها سورة . قال الاب : لا ، انتظر . لكن خيرون لم يعد يسمع ، وقال: سأراها وحدي . وخرج ، ليلتقي في الكوميدور الثاني ببقية اخوته. وفي الكوزينا كانت اخت الام تهيىء العشاء . اخذ ينظر اليهم وحاول ان يبتسم . كانوا ينظرون اليه بعيون تائهة . قال : اريد ... غير انه لم يكمل ، اشاح بوجهه عنهم فجاة وقصد الباب . دفع الباب ودخل . انغلق الباب خلفه تلقائيا . الغرفة مضاءة ، وروائح الادوية نفاذة . اقترب من السرير ، وكما لو انه في حلم ، مد يده وازاح الغطاء من على وجهها . اخذ ينظر الى وجهها دون ان يصدق . بدا له كل هذا مجرد حلم . بدا له انه يلعب ، يلعب او يحلم . نعم ، مجرد حلم كل هذا ، نعم ، انا احلم ، ليس الا . واراد ان يضحك ، ليتاكد من انه فعلا يلعب ويحلم . مع ذلك ، فهذا هو وجهها ، وهذه هي الغرفة ، وهذا انا . ولا يمكن ان يكون كل هذا مجرد حلم . هل يمكن ان يكون كل هذا مجرد حلم ؟ وجهها وانا والغرفة والنافذة والكاس والمشط والصندوق والادوية والثياب والاغطية والحصير والكفن والقفة والبطانيات والهيدورة والتليس والمرفع والمراة والسجادة واليومية وادم وحواء وزليخة ويوسف وسليمان وجنوده واللقلاق والشجرة الغريبة ومحمد الخامس والسقف والكهرباء وصباغة الحائط والحمامتان ـ هل يمكن ان يكون كل هذا مجرد حلم

لا يا الهي اعدها حية وساعبدك طيلة حياتي اعدها الينا حية وساعبدك طول حياتي يا الهي انت قادر على ذلك ولن تخسر شيئا اذا اعدتها الينا فاعدها وساعبدك طول عمري وسانسى خديجة يا الهي اذا شئت ولن اكون وزيرا ولا شاعرا يا الهي فقط اعدها الينا وافعل بي ما تشاء اعدها اعدها اعدها وساعبدك كما لم يعبدك الجيلالي يا الهي امي امي امي . امتدت يده الى عينيها لمس خدها كان كمن يلمس قطعة زجاج . اذن فقد ماتت . نعم . ماذا ؟ . نعم . ولا تحاول ان تصرخ او تضحك او ما شابه ذلك فذلك كما لا تجهل لا جدوى منه. ولكنها لم تعش حتى . لا يهم . يكفي انها ماتت سعيدة ، عش انت. هل حقا ماتت سعيدة ؟. انظر الى وجهها . عاد خيرون ينظر الى وجهها . فما هذه النقطة السوداء التي على جبينها ، كمروس هندية ؟ حوم بيده فطارت ذبابة ضخمة . لكن شعرها ما زال نظيفا، وجسدها ، تحت اللحاف ، ضامرا ، وبدون شك ، نظيفا كوجهها. وشعر خيرون برغبة في ان يخلع ملابسه ، ويرقد بجوارها . يريد ان ينام بجوارها . يطفىء الضوء ، وينام ، عاريا ، بجوارها . وشعر بقلبه يدق بعنف ، وبالحرارة تصعد من جوفه الى وجهه،وعرق ساخن يهاجمه . لا . اخذ قلبه يدق بعنف ، وكان يشعر برغبة في ان يتقيا ، وها هو ذا وجه خديجة يتراءى له ضاحكا ، تلك الضحكة القوية التي كانت تعيده بها اليها كلما لمست منه فتورا ، فشعر بالحقد نحوها ، حقد غامر وود ان تكون معه في تلك اللحظة لينهال عليها بالضرب حتى تموت ، شعر بالحقد نحوها ونحو كل ما كان يعرف ونحو هذا العالم كله بما ومن فيه . وشعر بالضيق ، وانه ، ولم يدر كيف ادرك ذلك ، على وشك ان يكرر ما حصل لامه تلك الليلة وهي تقلي السمك . وتذكر كيف عانقته لاخر مرة ، ورآها في صور اخرى ، وكان يعرف ان عليه ان يخرج ، فامه ماتت كما يموت جميع الناس ومع الوقت سينساها كما قال ابوه ، فليكن اكثر قوة من ابيه واخوته وليعتبر بما مضى . غير انه كان شبه واثق من انها ستفتح عينيها في اي لحظة ، فلا شك ان الله قد سمع دعوته وهو قادر رغم ان ذلك ليس من عادته ان يعيد اليها الحياة ولو للحظة فقط ليثبت له انه موجود وانه استمع الى دعوته ولم يهملها ، فاجعلها تفتح عينيها ولو للحظة حتى اعرف انك موجود ، هل تسمع؟ اجعلها تفتح عينيها حتى اعرف انك موجود ، هل تسمع ؟ هيه ، هل تسمع او لا تسمع ؟ عندئذ شعر بيد تحط على كتفه . التفت، فوجد نفسه في مواجهة ابيه ، كان الاب ينظر اليه بعينين حازمتين ، وكان وجهه يبدو حليقا جدا ، وبدا ان الحيرة التي كانت تبلل عينيه من قبل قد تبددت نهائيا . كان ينظر اليه بحزم ، وبعينين متفرستين ، وعلى شفتيه ارتسمت ابتسامة شبه قاسية . غير ان صوته كان لا يزال رقيقا ، وهو يقول له يكفي ، ويطلب منه مغادرة الغرفة ، حتى لا تتالم روحها ، وهي تراه على هذه الحال . وساله : هل قرات السورة ؟. وبدا في صوت ابيه ما يشبه سخرية . وحدق خيرون في وجه ابيه لحظة ، وكان يقف مواليا ظهره لامه ، ثم قال : نعم ، ثم تخلص من يد ابيه ، ومضى خارجا ، ترن في راسه ضحكة خديجة.

الربـاط

مكتبة النوري

دمشق ـ تجاه البريد العام

وكيلة منشورات دار الآداب وكبرى دور النشر اللبنانية والعربيـة في القطر السوري .